المحاضرتين رقم 17 و 18 في مقياس "المنهجية"

رابعا: اقتراب الجماعة. لقد ظلت الدراسات السياسية لعهود طويلة أسيرة الاقترابات القانونية والتاريخية والمؤسسية، وذلك قبل اكتشاف اقتراب الجماعة ثم استخدامه بشمل واسع. وقد كان الفضل في ابتكار اقتراب الجماعة إلى العالم الأمريكي "آرثر بانتلي" إلا أن شهرة استخدامه جاءت على يدي ديفيد ترومان.

لقد أحدث اقتراب الجماعة تحولا كبيرا في منظور علم السياسة، حيث حول اهتمامه من التركيز على الأبنية والمؤسسات الرسمية إلى العمليات والنشاطات والتفاعلات، أي الانتقال من الدراسة الجامدة السكونية إلى ديناميات الحياة السياسية، كما نقل محور اهتمام علماء السياسة من التركيز على الدولة، والتي هي مؤسسة المؤسسات (قضايا واسعة) إلى الجماعة (قضايا أصغر)، ولكنه وسع من مجال علم السياسة.

جاء اقتراب الجماعة كبديل عن الاقترابات الأخرى كاقتراب النخبة، واقتراب الطبقة...، فعلى الرغم من وجود أساس مشترك لكل من اقتراب الجماعة والطبقة والنخبة، باعتبار ان كل هذه الاقترابات تنظر إلى الظاهرة السياسية على أنها نتاج تفاعلات اجتماعية، وعلى أن هذه التفاعلات تعبر عن انقسام المجتمعات فعند الماركسيين تقسم إلى طبقات، وعند أنصار الجماعة إلى مجموعة من الجماعات التي يحكمها الصراع والتعاون من أجل السيطرة على صناعة السياسات، وعند انصار النخبة إلى أقلية ماهرة تتحكم وأكثرية خاضعة، وينظر الاقتراب الطبقي مثلما يفعل اقتراب النخبة إلى الصراع بين الطبقات أو النخبة و الأغلبية الساحقة من الناس على انه صراع صفري، بمعنى ان تركز القوة والقيم في يد طبقة أو جماعة واحدة بينما تحرم الأغلبية من تلك القيم.

كذلك أولى اقتراب الجماعة الاهتمام بالجماعات دون أن يعير أدنى اهتمام للأفراد، فالسلوك الفردي يصاغ من خلال الجماعة حسب زعمهم، فهي التي تضبط سلوك أعضائها وتوجهه وتمثل مرجعية فكرية له، على أساسها يتصرف ويتحرك ويشكل سلوكه وتنمو اهتماماته، ويطور مفاهيمه، فهي

سياق فكري واجتماعي يتحرك خلاله نشاط الفرد. فقد أولى "بانتلي" أهمية كبرى للجماعة في العملية السياسية بدلا من الأفراد، والدول والدساتير وموضوعات السيادة.

مفهوم الجماعة واستخداماته: الجماعة هي نظام مؤسس على مصلحة مشتركة وعلى تفاعل أعضائها. هذه الجماعة تعيش في بيئة تتفاعل معها أخذا وعطاء، وتتبادل معها التأثير، ويتوقف تحول الجماعة إلى مؤسسة على البيئة الاجتماعية السائدة، كما أن هذه الأخيرة تتأثر بدورها بميلاد الجماعات وتنظيمها. وبناء على ذلك فقد تم الربط بين المصلحة والجماعة، حيث يرى "ترومان" في المصلحة على أنها اتجاه أو ميل مشترك للجماعة اتجاه احتياجاتها أو متطلباتها الاجتماعية وأهداف الجماعة هي التي تحدد المصلحة وتعرفها وليست نشاطاتها.

فوجود الجماعة يقتضي توفر مجموعة من الشروط منها:

1. وجود تفاعل بين الأعضاء الذين يفترض أنهم يكونون الجماعة.
2. يطور الأعضاء مجموعة المعايير التي تمثل الإطار الذي تؤسس العلاقات ما بين الأشخاص ضمنه.
3. يتحول التفاعل المتواتر إلى مؤسسة (جماعة منظمة متميزة عن الجماعات الأخرى).
4. وجود وضع اجتماعي وسياسي يسمح بذلك.

ويستخدم اقتراب الجماعة لدراسة سلوك الجماعات، وتأثيراتها المختلفة، سواء تعلق الأمر بالتأثير المباشر في أفرادها أو غير أفرادها، وكذلك تأثير الجماعات في النظام السياسي، وخصوصا في عملية صنع القرارات. لذلك يلجأ الباحثون إلى استخدام هذا الاقتراب، معتبرين الجماعة كوحدة للتحليل، بدلا من الأفراد أو الدول، ويتتبعون أنماط التأثير التي تتركها الجماعات المتماثلة او المختلفة قصد التوصل إلى عملية التعميم التي هي غاية تنشدها مختلف العلوم.

لقد تساءل مستخدمو اقتراب الجماعة تساؤلات منهجية تكون الجماعة محورها، كقولهم:

1. ما فائدة الجماعة للدراسات السياسية؟
2. هل تؤثر الجماعات في أعضائها، وكيفية ومدى ذلك التأثير؟
3. وهل تؤثر الجماعات في عمل النظام السياسي، وما مقدار ذلك التأثير؟

وللإجابة على هذه التساؤلات، قدم الباحثون مجموعة من الحجج على الدور المهم لهذا الاقتراب في العلوم السياسية، منها:

فيما يتعلق بالسؤال الأول، فإن من فوائد اقتراب الجماعة هو إضفاء الجماعة طابعا ديناميكيا على الدراسات السياسية، حيث نقلتها من مجرد الاهتمام بالأطر الهيكلية الرسمية والدستورية، كما تفيد الجماعة في المساعدة على معرفة التوجهات والسلوك الانتخابي لبعض الجماعات، وتفيد الجماعة في التنشئة السياسية لأعضائها، واللازمة لأداء الوظائف السياسية التي تتطلبها الحياة السياسية. وتفيد دراسة الجماعات في معرفة الأسس التي تقوم عليها كثير من النظم، حيث إنه في الكثير من دول العالم الثالث تقام الأنظمة السياسية على الأسس الإثنية، والتي تعتبر الجماعات محورها.

وفيما يتعلق بالسؤال الثاني، فقد قامت العديد من الدراسات لاختبار هذا السؤال وتوصلت إلى على أن الجماعات تؤثر في أعضائها وغير أعضائها، إذ غالبا ما يتبع الفرد الجماعة التي ينتمي إليها في سلوكه وتصرفاته التي يجابه بها المواقف التي تعرض له في حياته. وتلعب التنشئة الجماعة لأعضائها سياسيا دورا مهما في تكوين اتجاهاتهم وميوله، فتنشئة الأسر لأطفالها وتكوين اتجاهاتهم نحو السلطة الحاكمة، والوطن، والنظام السائد، والجماعات الأخرى له أثر في سلوك الطفل المستقبلي حينما يصير راشدا. ففي الجماعات الأولى يتلقى الفرد تدريبا لأداء الأدوار المطلوبة منه في المستقبل في الموقع الذي يوجد فيه. ذلك التدريب الذي يتلقاه الفرد في الجماعات الأولى تكون له انعكاساته عليه في المستقبل في المواقع السياسية والاقتصادية التي قد يشغلها.

ويتوقف تأثير الجماعات في الافراد على درجة انتساب الفرد على الجماعة، فالانتماء القومي بدوره يقوي تأثير الجماعة في أعضائها، ويزداد تأثير الجماعة كلما كانت له علاقة بالعملية السياسية. لذلك حاول بعض الباحثين التوصل إلى تعميمات احتمالية واسعة بشأن تأثير الجماعة ووجدوا أنه:

1. كلما كان انتماء الأفراد قويا كان تأثير الجماعة في أفرادها عاليا.
2. كلما كان للجماعة علاقة بالسياسة يمكن أن يكون لها تأثير في أعضائها.

كما أن هذا التأثير الذي تحدثه الجماعة يمكن أن يتخذ شكلين:

1. تستطيع الجماعة أن تؤثر في طريقة تفكير الشعب واحساسه بالقضايا السياسية.
2. يمكن أن تصبح الجماعة مصدرا لأدلة سياسية موثوق بها.

وبناء على ذلك فإن العضوية في أية جماعة لها تأثيرها في الاتجاهات السياسية للأفراد وسلوكهم، خصوصا إذا كان الفرد ينتمي إلى الجماعة، ويرى أن لها علاقة بالسياسة.

وفيما يتعلق بتأثير الجماعات في النظام السياسي، توصل الباحثون إلى أن الجماعة يمكن أن تؤثر في قرارات الحكومة على الأقل في بعض القضايا، كأن تحصل على بعض الأهداف من الحكومة. ويتأثر الدور الذي تلعبه الجماعات في التأثير في سلوك النظام السياسي بتوفر مجموعة من الشروط، منها: حيازة الجماعة على ثروات مالية كبيرة تمكنها من التأثير في سلوك النظام السياسي، فقد تستخدم أموالها لتجنيد الرأي العام أو في الحملات الانتخابية وامتلاك وسائل الاتصال المؤثرة، وشراء الذمم والتأثير في الاقتصاد من خلال البنوك والاحتكارات المختلفة. وكذلك إذا كانت الجماعة تضم عددا كبيرا من الأعضاء تستطيع أن تؤثر بهم، كما أن التنظيم الجيد والانسجام داخل الجماعة له دوره في تقوية تأثير الجماعة في النظام السياسي عموما، والأنظمة الفرعية خصوصا –البرلمان مثلا من خلال الضغط لتعديل قانون أو إصدار آخر، أو لإلغاء قانون تشعر بأنه يضر مصالحها- وكذلك امتلاك الجماعة لكفاءات بشرية، أو لقنوات إعلامية، وشبكة علاقات واسعة عبر المجتمع، كذلك صورة الجماعة لدى المجتمع، ومدى نفعيتها سياسيا واجتماعيا.

وتستخدم الجماعة أشكالا من الضغط لتحقيق أهدافها كالإقناع، التهديد، استخدام المال، وحتى العنف.

الافتراضات التي يقوم عليها اقتراب الجماعة:

1. أن الجماعة هي وحدة التحليل التي يمكن ان ينطبق منها الباحث في دراسة الظواهر السياسية، فهي محور العملية السياسية.
2. يتم النظر إلى المجتمع أو مفهوم المجتمع على أنه شكل فسيفسائي من الجماعات المتعددة في حالة من التعاون والصراع.

3. النظام السياسي هو عبارة عن مركب معقد من الجماعات المتفاعلة فيما بينها باستمرار، حيث يتضمن هذا التفاعل أشكالا من التدافع بين الجماعات أو الضغط والضغط المضاد الذي يحدد حالة النظام السياسي. هذا الصراع بين الجماعات هو الذي يقرر من يحكم، ومن ثم فإن التغير الذي يطرأ على تكوين الجماعات وعلاقاتها يؤثر في النظام السياسي وفي تغيره.
4. يتوقف تأثير الجماعة في أعضائها على شدة انتمائهم من جهة، واهتماماتها بالموضوعات السياسية من ناحية أخرى.
5. يتوقف تأثير الجماعة في النظام السياسي على مكونات القوة بالنسبة للجماعة (المال، العدد، المكان، التنظيم..) وعلى طبيعة النظام السياسي، وعلى العلاقة الموجودة بين النظام والجماعة.

تصنيفات الجماعة: تتعدد تصنيفات الجماعة بتعدد المصنفين ووجهات نظرهم حول خصائص الجماعات، فهناك من صنف الجماعات على أساس التحام الفرد مع الجماعة، أي درجة قرب الفرد من الجماعة، وهناك من صنفها على أساس الأمد، وهناك من صنفها على أساس التنظيم.

أولا: تصنيف غابريال ألموند: صنف ألموند الجماعات إلى أربعة أصناف:

1- جماعات المصلحة غير الترابطية: وتشير إلى جماعات القرابة، والجماعات العرقية والمحلية، والقائمة على المكانة، والطبقة، والتي تعبر عن مصالحها بشكل دوري من خلال الأفراد أو العائلة أو الرؤساء الدينيين، ويتميز هذا النمط من الجماعات بغياب إجراء تنظيمي لترسيخ طبيعة وأساليب التعبير، والافتقار إلى الاستمرارية في البنية الداخلية.

2- جماعات المصلحة المؤسسية: توجد هذه الجماعات داخل تنظيمات كالأحزاب السياسية، والهيئات التشريعية، والجيوش، والبيروقراطيات، والكنائس، إنها تنظيمات رسيمة مشكلة من أناس يعملون بشكل حرفي، وهي تعبر عن المصالح وتستهدف وضع السياسات العامة وتنفيذها.

3- جماعات المصلحة الترابطية: وتقوم على الترابط الاختياري بقصد التعبير عن مصالح أعضائها والدفاع عنها، كالنقابات والاتحادات المختلفة.

4- جماعات المصلحة المفتقرة إلى المعايير: هي جماعات يفتقر أعضاؤها إلى معايير تضبط سلوكهم، فهي بنى تفتقد المعايير القيمية، وتفتقر إلى التنظيم، وغالبا ما يتصرف أعضاؤها بشكل فردي، وكثيرا ما يلجؤون إلى العنف للتعبير عن حاجاتهم بسبب الحرمان والإقصاء.

ثانيا: تصنيف زمني: وتصنف الجماعات حسبه على أساس الاستمرار والدوام او الظهور ثم الاختفاء، وتتضمن:

1- جماعات مصلحة دائمة: ارتضى لها أصحابها الدوام والاستمرار حتى وإن اختفى مؤسسوها.

2- جماعات مصلحة مؤقتة تظهرها الحاجة وتختفي باختفائها.

ثالثا: تصنيف جغرافي: ويصنف الجماعات على أساس الوجود الجغرافي والاهتمام الجغرافي كذلك، وتضم:

1- جماعات مصلحية محلية تهتم بالشؤون الداخلية، وضمن الرقعة التي توجد فيها.

2- جماعات مصلحية وطنية تهتم بكل قضايا الوطن أو بالتراب الوطني كله.

3- جماعات مصلحية دولية يتعدى اهتمامها التراب الوطني إلى غيره.

رابعا: تصنيف ترومان: ويتضمن:

1- جماعات فئوية: وهي مجموعة من الشعب الذي يشترك في بعض السمات العامة، تلك السمة لا تكون أكثر من سمة ديموغرافية أو خاصية مادية (مستوى اجتماعي –الأطباء- المحامين)

2- جماعات تفاعلية: هي تلك المجموعات من الناس الذين يتلقون معا لاشتراكهم في سمة معينة، ولكنهم لا يملكون بناء منظما رسميا.

3- الجماعات المؤسسية: تتميز ببناء رسمي منظم، وتتراوح الجماعات التنظيمية من العائلات إلى السلطات التشريعية إلى منظمة الأمم المتحدة.

4- الجماعات المحتملة: وهي مجموعة من الأفراد يشتركون في سمة معينة، هؤلاء الأفراد قد يتفاعلون وينتظمون في بعض الأوقات، مجموعة المستهلكين مثلا.